التشبيه المنهي عنه في القرآن الكريم
(عبور من المألوف إلى غير المألوف)

هانم محمد حجازي الشامي*

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث موضوعًا بلاغيًّا يتعلق بطرفي التشبيه، ومدى العلاقة التي تحكمهما، وخروج التشبيه عن مساره من كونه اشتراك شَيْئَيْنِ فى وصفٍ من الأوصاف إلى النهي عن التشبه أصلًا وموضوعًا سواء أكان النهي مطلقًا أم في قيد من قيوده. وقد جاء النهي عن الصلة في عشر آيات قي القرآن الكريم ممثلة في أسلوبية (لا تكونوا، لا تكن) أو على تقديرها، وما يقتضيه من أن المشبه به في منزلة لا يصح أن يتشبه بها المخاطَب.

ويكشف البحث عن الفرق بين التشبيه المنهي عنه والتشبيه منزوع الصلة في كون الأول نهيًا عن تشبه الطرف الأول بالطرف الآخر، لكن قد يفعلها أحد فيأثم ويشترك مع الفئة الأخرى في الحكم المنهي عنه، أما التشبيه منزوع الصلة فإن الصلة بين الطرفين غير موجودة كمًا وكيفا، أصلًا وفرعًا، منتفية انتفاءً تامًا.

الكلمات المفتاحية: (التشبيه، النهى، التخالف، التضاد، التمثيل) .

---

* أستاذ النقد والبلاغة ـ كلية الآداب ـ جامعة كفر الشيخ

hanemelshamy@yahoo.com

المقدمـــة:

من المعروف أن التشبيه عقد صلة بين طرفين تربطهما صفة مشتركة، أو "اشتراك شَيْئَيْنِ فى وصفٍ هو من أوصاف الشيء الواحد"، ويتحكم في الطرفين لمح صلة بينهما، سواء أكانت صلة مادية حسية أم نفسية، ومن أجل تلك الصلة وضع التشبيه بأنواعه، لكن التشبيه قد يأتي غير جامع للطرفين. وقد أوضحت ذلك في كتاب تمَّ نشره بعنوان: بلاغة نزع الصلة في القرآن الكريم (دراســة في الهيـكل والبنــاء). إلا أن هذا البحث يعلن عن النهي عن وجود صلة بين الطرفين، تحت مصطلح: (التشبيه المنهي عنه). ويشارك التشبيه المنهي عنه التشبيه منزوع الصلة في كونه معتمدًا على الأسلوب الإنشائي متجسدًا في بدء الآية بالنهي عن التشبيه بالمشبه به مطلقًا أو في قيد من القيود، مما يعطي المشبه قيمة أعلى من المشبه به، مع كونه ليس تشبيهًا مقلوبًا؛ إذ إنه لم يأخذ مشروعية التشبيه؛ وإنما ليعطي الفئة الأولى ميثاق الاستقامة وعدم التشبه بالطرف الآخر لعلة خروج أو عدول عن معيارها وفق السياق الذي جاءت فيه. لكنه يختلف عن التشبيه منزوع الصلة في كونه نهيًا عن التشبه بدءًا، لكن قد يفعلها أحد فيأثم ويشترك مع الفئة الأخرى في الحكم المنهي عنه، أما الأول فإن الصلة غير موجودة كمًا وكيفًا، أصلًا وفرعًا، منتفية انتفاءً تامًا.

وقد اتبع البحث المنهج الوصفي القائم على التحليل، كما أنه كشف عن الآيات التي جاء فيها التشبيه المنهي عنه محللًا إياها، وقد تم بيان ذلك في مقدمة وتمهيد ومبحثين؛ جاء المبحث الأول بعنوان: التشبيه المنهي عنه القائم على تضاد الطرفين. والمبحث الثاني بعنوان: التشبيه المنهي عنه القائم على تخالف الطرفين.

التمهيـــد:

التشبيه المنهي عنه تشبيه قائم على نهي الطرف الأول عن التشبه بالطرف الآخر، سواء كان نهيًا مطلقًا أو في قيد من القيود. وقد جاء في القرآن الكريم في عشرة مواضع. وجاءت التشبيهات العشر المنهي عنها جميعًا تحت مظلة التشبيه التمثيلي، سواء أكان وجه الشبه مذكورًا بقيد واحد أم بعدة قيود، ولكن التشبيه التمثيلي في هذه الآيات خاصة يوجهها الحالة التمثيلية للفريقين، ونهي الفريق الأول مع كونه على الحق، واتباع الطرق المستقيم عن التشبه بحال الفريق الآخر الذي التبس معتقده بالباطل وسلك طريقًا غير سوي، أو ربما كان معتقده صحيحًا لكنه حاد عنه فترة زمنية، أو لأذى بدر منه، أو نهي لرسولنا الكريم في ألَّا يكون حاله كحال سيدنا يونس عليه السلام من الضجر والمغاضبة فيُبْتلى ببلائه عليه السلام. وقد أخذت الآيات مسلك التمثيل فأصبح يضرب بها المثل في النهي عن التشبه بها، ومع كون الطرف الأعلى جاء أولًا إلا أنه ليس تشبيهًا مقلوبًا؛ إذ الداعي من التشبيه- هنا- النهي عن التشبه والنهي عن الصلة التي تجمع بين الطرفين، وما شرع التشبيه إلا لإقامة الصلة بينهما.

ومن أمثلته قولنا: (لا تكن كالغراب همّته بطنه- لا تكن كالذي يتبع الهوي؛ فإن ألف القلب رأيت النعيم منه قصيًّا- لا تكن كالمرائي ينفق ولا يثاب على فعله- لا تكن كالذي انسلخ من آيات الله؛ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث- لا تكن مهمومًا قلقًا كالغصن إن أثقله المطر مال ولم يستقم بعد الميول،....،).

وقد جاء التشبيه المنهي عنه في القرآن الكريم في عشرة مواضع كالآتي: [البقرة: 264]، [آل عمران: 105، 156]، [الأنفال: 21، 47]، [النحل: 92]، [الأحزاب: 69]، [الحديد: 16]، [الحشر: 19]، [القلم: 48] [(1)].

م	الآية	السورة
1	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾	البقرة: 264
2	﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ ﴾	آل عمران: 105
3	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ ﴾	آل عمران: 156
4	﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ﴾	الأنفال: 21
5	﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ ﴾	الأنفال: 47
6	﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ ﴾	النحل: 92
7	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩ ﴾	الأحزاب: 69
8	﴿ * أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ﴾	الحديد: 16
9	﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ ﴾	الحشر: 19
10	﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ ﴾	القلم: 48

ويتبين من خلال الآيات السابق ذكرها أن صورة طرفي التشبيه قد بُنيت على أسلوب النهي عن التشبه، وجاء ذلك بصيغ متعددة، مثل: (لا تكونوا / لا تتشبهوا، لا تكن / لا تتشبه) مما يعكس توجيهًا صريحًا بالاجتناب والكف. غير أنَّ آية سورة [البقرة: 264]، خالفت هذا النسق ظاهرًا، فجاء فيها النهي مقدرًا، والخطاب موجهًا إلى الجمع دون التصريح بصيغة النهي المعتادة، فجاء بأسلوبية النهي: {لا تبطلوا}.

وقد جاءت تسع آيات بالمخاطب الجمع، وفي آية واحدة الخطاب بالمفرد موجهًا للرسول صلى الله عليه وسلم؛ وتعليمًا لأمته. وجاء خطاب الجمع في ثلاث آيات مصدرًا بالنداء: {يا أيها الذين آمنوا} [البقرة: 264]، [آل عمران: 156]، [الأحزاب: 69]، وخمس آيات صُدِّرت بـــ (ولا تكونوا)، وآية واحدة بُنيت على الاستفهام الإنكاري، وهي آية سورة [الحديد: 16]، وفيها قراءتان[2]، وتوجيه قراءة النهي أبلغ وأوقع. وآية بنيت على الأمر ثم قرنت بالنهي عن قيد من قيود المشبه به وهي آية سورة [القلم: 48].

وهذا يدل على أن التشبيه المنهي عنه قد تأسس على صيغة طلبية- أعني من جهة التمهيد له والأسلوب الذي ورد فيه- فقد صُدِّر بالنهي في خمس آيات، وبالنداء في ثلاث، وبالاستفهام الإنكاري في واحدة، وبالأمر في أخرى. وليس هذا التصدير مجرد تنويعٍ لفظي، بل هو في ذاته يحمل دلالاته البلاغية، ويأتي على نحو فريد يتسق مع السياق الخاص لكل آية من تلك الآيات العشر، ويستجيب لمقاماتها التعبيرية في تناغم وانسجام.

ومن نعم الله تعالى عليَّ أنْ أنار بصيرتي ومنَّ عليَّ بالفهم، فهذه الطائفة من التشبيهات المنهي عنها جميعًا تندرج تحت مظلة التشبيه التمثيلي، سواء أكان وجه الشبه مذكورًا بقيد واحد أم بعدة قيود. فالتشبيه التمثيلي في هذه الآيات خاصة توجهه الحالة التمثيلية للفريقين، ونَهِي الفريق الأول- مع كونه على الحق، واتباع الطريق المستقيم- عن التشبه بحال الفريق الآخر الذي التبس معتقده بالباطل وسلك

طريقًا غير سوي، أو ربما كان معتقده صحيحًا لكنه حاد عنه فترة زمنية، أو لأذى بدر منه، أو نهي لرسولنا الكريم في ألّا يكون حاله كحال سيدنا يونس عليه السلام من الضجر والمغاضبة فيُبَتلى ببلائه عليه السلام.

وقد أخذت الآيات مسلك التمثيل، فجعلت مضرب مثل في النهي عن التشبه، فصار يحتج بها على الامتناع عن الاتصاف بما ورد في صلتها. وعلى الرغم من أن الطرف الأعلى قد جاء في صدر التشبيه، فإن ذلك لا يجعله تشبيهًا مقلوبًا؛ إذ الغاية من التشبيه هنا ليس إبراز المشابهة، بل التحذير من إقامة صلة بين الطرفين. ذلك أن جوهر التشبيه في أصله قائم على إقرار صلة، أما في هذا الموضع فالتشبيه قد سُخر للنهي عن تلك الصلة والكف عنها.

وأما وجه الشبه في هذه الآيات فهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه، وما يربط هذه الآيات جميعًا خيطٌ خفيّ، لا تراه الأبصار ولكن تدركه القلوب، خيط من الحرمان... حرمانٍ مرير من الانتفاع بأعظم النعم إذا لم ينته الطرف الأول ويكف عن المنهي عنه، واختار العمى عن النور، والضلال عن الهداية.

ويتجلّى هذا المعنى في صور متعددة، منها: حال المرائي الذي يُبطل صدقاته بالمنّ والأذى، فيحرم برّها وثوابها، مع أنه بذل المال وتكلف في العطاء. ومنها حال من شاعت بينهم الفتنة، واختلّ ميزان الحق والباطل، فعمّ الفساد ووقع التفرّق، وانقلبت الموازين بعد أن أبصروا آيات الله البينات. وكذلك حال أولئك الذين دأبوا على المكر ليلاً ونهارًا، يثنون إخوانهم عن الجهاد، يثبطون العزائم، مستندين إلى ظنونهم الباطلة أن البقاء أمان، وأن من قُتل لو لبث معهم ما أصابه القتل ولا نزل به الموت، فإذا حلّ القضاء، ووقع القدر، أخذهم الندم فلم يُغنِ عنهم شيئًا. وحال أولئك الذين صمّوا آذانهم عن صوت الحق، ولووا رؤوسهم عنه، واستغشوا ثيابهم، واسدلوا على قلوبهم حُجب العناد، واستكبروا استكبارًا. وحال المشركين في خروجهم إلى

غزوة بدر؛ إذ خرجوا افتخارًا واستكبارًا يملؤهم الزهو والخيلاء، فأُمر المؤمن أن ينأى بنفسه عن مشاكلة هؤلاء، وأن يجعل عمله خالصًا لوجه الله الكريم، منزّهًا عن العُجب والتظاهر. ويُلحَق بذلك حال من يتوسّل إلى الخداع والتغرير بالإكثار من العهود والمواثيق، فأتى النهي الإلهي عن التشبّه بمن جعلهم الناس مضرب المثل في السخرية والاستهزاء، فكان النهي عن الرجوع إلى التبلس بالفساد بعد التنعم بالصلاح. وحال الذين قصدوا إيذاء رسولهم؛ من عصيان، وإلحاق عيب، وسخرية، واستهزاء. وحال من تثاقل عن الاستجابة فطال عليه الأمد فقسا قلبه. وحال من أعرض عن أمر ربه، فأمر بالمنكر ونهى عن المعروف- حفظنا الله والقارىء- فأنساه الله نفسه. وكذلك حال الداعي حين يشتد به الضجر والمغاضبة في إبلاغ الدعوة فيصير الداعي مهمومًا مكظومًا؛ وتضيق عليه الدنيا وهو يحمل نور الدعوة في صدره...

لهذا كلّه، جاء بناء هذا التشبيه على خصيصة تركيبية جامعة، تضمّ ما خفي من وجوهها، مما لم يُصرّح به، وتضمّ في مجملها كل ما يدور في الذهن من صور افتعالهم الأذى.

وقد بُني الخطاب القرآني في هذه الآيات العشر على عدم تشبه الطرف الأول بحال الطرف الآخر؛ لئلّا ينقلب حاله إلى حالٍ ممقوت، قد وقع وحدث، وشوهدت عواقبه رأي العين. وإذا كان النهي عن حالة واقعية قد خُبِرَت نتائجها، واستُعلنت آثارها، صار الأمر أكثر جزمًا في النهي عن الإتيان به، وألبس التحذير ثوب الردع والتخويف على الإقدام عليه، لا سيما أن التمثيل يعتمد على البرهان المصاحب، والقياس الموضح، والجلاء بعد الخفاء، والتصريح بعد التكنية، فينقل النفس عما يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلم بالمثل والرؤية، وينقلها عن العقل إلى الإحساس، فتجد فيه قوة واستحكامًا، وبلوغ ثقة والتزامًا؛ فتمتثل لأوامره، وتكف عن نواهيه.

ومن هنا؛ كان التشبيه التمثيلي في هذه الآيات العشر قائمًا على النهي الصريح عن تشبه الطرف الأول بالطرف الآخر، ومن ثمَّ النهي عن إقامة صلة أو وجه شبه بين الطرفين سواءً أكان مطلقًا أم مشروطًا بقيدٍ. وتكمن قوة التشبيه المنهي عنه في أنه مستمد من شخصيات رئيسة، إما مذكورة بالاسم، أو موصوفة بأفعالٍ اشتهرت بها، تتّحد في إدراكها العقول، وتتشارك في تصورها النفوس، فيتسنى للمتلقي أن يتفاعل مع الخطاب، فيُحدث أثره العميق، ويؤتي التشبيه ثمرته في التربية والتوجيه.

ومن خلال التحليل الإحصائي كان انبناء الفصل على مبحثين؛ كالآتي:

المبحث الأول: التشبيه المنهي عنه القائم على تضاد الطرفين

وأقصد به أن يجمع المتكلم بين طرفين متضادين تضادًا صريحًا، ويكون الطرف الأول منهيًّا عن التشبه بالطرف الآخر لأكثر من قيدٍ وُجِد في التركيب، وقد جاء في آية واحدة كما في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ ﴾ **[آل عمران: 156]. وقد بُني التشبيه المنهي عنه على النداء؛ للتنبيه لما يُقال بعد ذلك، مخاطبًا الفئة الأولى المنهية عن الفعل بالصلة؛ لاستحقاقهم الإيمان بقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}، ثم بالفعل المضارع المقترن بـ (لا الناهية/ لا تكونوا)، ثم إردافها بالفئة الأخرى المنهي عن التشبه بها: (كالذين كفروا)؛ لاستحقاقهم أيضًا ما في حيز الصلة .**

وقد عدل الخطاب القرآني عن استعمال (إذ) الدالة على المضي، إلى (إذا) التي تفيد ظرفية الاستقبال، وتتضمن في بنيتها معنى الشرط. وليس هذا التحول الأسلوبي من قبيل الترادف اللفظي، بل هو عدول له قصديته؛ إذ إن توظيف الفعل

الماضي عقب (إذا) بدلًا من الفعل المضارع إنما يُستعار لمعنى التحقق من جهة، ويسهم في استحضار الصورة وكأنها ماثلة للعيان من جهة ثانية، بفضل ما تنطوي عليه (إذا) من دلالة استقبال الحدث، وكأن المستقبل قد صار حاضرًا منظورًا. كما أن التوظيف الأسلوبي يفصح –من جهة ثالثة– عن استمرارية الزمان المنتظم للحال ويقوم عليه مجرى القول. وفي هذا السياق يقول الفراء: "كان ينبغي فِي العربية أن يقال: وقالوا لإخوانهم: إذ ضربوا فِي الأرض؛ لأنه ماضٍ كما تقول: ضربتك إذ قمت، ولا تقول ضربتك إذا قمت. وذلك جائز، والذي فِي كتاب الله عربي حسن؛ لأن القول – وإن كان ماضيًا فِي اللفظ فهو فِي معنى الاستقبال. فأنت تقول للرجل: أحبب من أحبك، وأحبب كل رَجُل أحبك، فيكون الفعل ماضيًا، وهو يصلح للمستقبل؛ إذ كان أصحابه غير موقّتين، فلو وقّته لم يجز[3].

وجاء بمتممات القول: (إذا ضربوا في الأرض) بإضافتها إلى الظرف عاطفًا عليها (أو كانوا غزي)، ثم جملة مقول القول الظاهرة للاعتقاد الفاسد: (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا)، ثم بُني عليه العلة من التشبيه المنهي عنه بلام الصيرورة أو العاقبة على طريقة المذهب الكلامي: (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم).

وقد نَهى الخطاب القرآني عن التشبه بالكفار في أمور العقيدة، وعدم إيمانهم بالله، فلا تقولوا أيها المؤمنون الموقنون بالله لمن عزم على السفر؛ قصدًا للتجارة، أو غزوًا في الحرب؛ لنصرة دين الله، إذا كانوا مقيمين عندنا لم يتعرضوا للموت أو القتل. وقد وظف القرآن الكريم لفظة (العندية) بعناية بليغة؛ لإظهار مدى حرصهم على مخالفة أوامر الله، وبيان مكرهم، ليجلي بها مبلغ حرص الكافرين على مخالفة أمر الله، وبلوغهم في المكر حدًّا لو وُزن لزلزل الجبال من شدّته. والمعنى: [لا تتشبهوا بالكفار في قولهم لإخوانهم إذا سافروا أَوْ كانُوا غُزًّى هذا القول؛ لئلا يتسبب عن ذلك وجود الحسرة في النفوس]. أي:[فلا تكونوا مثلهم في القول الباطل والمعتقد الفاسد المؤديين إلى الحسرة والندامة]. فيقولون لهم ما يدل على أن بقاءهم

أولى، وأن فراقهم مهلكة، مشيعين بذلك ظنونًا فاسدة، ومعتقدات موهومة. فجاء النهي لتجنب مزالق أهل الكفر الذين ضلّوا سواء السبيل، وأضلوا غيرهم.

وقد بيَّن النهي عن التشبيه في تلك الحال بالصيرورة التي تلحق الاعتقاد الباطل وتنبعث منه: {ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم}، و(ذلك) اسم إشارة مفعول أول، يشير إلى القول أو الاعتقاد أو الظن، ونتيجة اعتقادهم أن جعل الله تعالى المفعول الثاني وهو (الحسرة) متمكنة في قلوبهم، والضيق والحرج في صدورهم، ويكون مبنى التشبيه [لا تكونوا أيها المؤمنون كالكفار في اعتقادهم؛ لينتفي عن قلوبكم ما يلحق بقلوبهم من غم وكدر]. وهذا امتثال للنهي. أو قد يكون [لا تكونوا أيها المؤمنون مثلهم في اعتقادهم؛ لأن انتفاء ذلك عنكم يلحق الغم في قلوبهم]. وهذا انتفاء للمماثلة.

وإنّ تعدد التأويلات في البيان القرآني تزيد من إعجازه؛ إذ تتسع معانيه وتتشعب مقاصده، فإذا قلنا إن الرأي الأول أظهر؛ لأنه نَهيٌ عن التقاعد عن نصرة دين الله، وتثبيط عن ذلك؛ لئلا يصيبهم مثل ما أصاب الأولون ممن قعدوا وتواكلوا، فحلّت بهم الحسرة، ونزل بهم البلاء، فلم يُغنِ عنهم ما كانوا يجمعون. فقد تجاوز النهي مقتضى الظاهر إلى الخروج على خلاف مقتضاه؛ ليرسم للمؤمنين سبيل العزة، ويحذرهم من عاقبة التراخي والتثبيط. وقد أكد القرآن الكريم ذلك: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران: 157]؛ وحدث بهذا التأكيد انتفاء الغم والحزن في الدنيا، والمغفرة والرحمة في الآخرة.

وإذا قلنا إنَّ الرأي الآخر أولى بقرينة قوله تعالى في الآية: {وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيت}، وفي غيرها من آي القرآن الكريم: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: 78]، فهو تكذيب للكفار في زعمهم أنه من كان عندهم في المدينة ولم يسافر أو يغزو ما قتل أو مات.

وانتفاء هذا الاعتقاد عنكم أيها المؤمنون يزيدهم حسرة وغمًا. وعبَّر الخطاب القرآني بالحالّ (القلوب) بدلا من التعبير بـ (المحل) الصدور؛ لتمكن الحسرة فيها، والإيذان بعدم مفارقتها، وهي علامة فساد المحل/ الصدور، فإذا فسد الحال كان فساد المحل أشد سرعة. وقد ختم بما يحمل الوعد للمؤمنين بالجنة إن امتثلوا لأوامره واجتنبوا نواهيه، والوعيد لهم إن ماثلوا الهيئة المنهي عنها.

وفند الخطاب القرآني هذا الاعتقاد بقوله تعالى: {والله يحيي ويميت}؛ موظفًا الاسم الأعظم (الله)؛ لاستحقاقه وتفرده بالإحياء والإماتة، فقد يحيي الضارب في الأرض، والغازي في الحرب مع اقتحامهما موارد الهلكة، ويهلك المقيم في أبراج مشيدة مع أخذه أسباب الحيطة والحذر. فقد يترك الموت من لا يهابه، وقد يصيب من يحذره ويخافه. وقد صور ذلك الأهْتم بن سِنان[4]:

وما كلّ من يغْشى القِتالَ بميّتٍ ... ولا كلُّ منْ يرْجو الإيابَ بسالِمِ

المبحث الثاني: التشبيه المنهي عنه القائم على تخالف الطرفين

أقصد بالتخالف أن طرفي التشبيه لم يأتيا على نسق الضد المباشر، وقد أخذ عدة صور في التشبيه المنهي عنه كالآتي:

(أ) التشبيه التخالفي المنهي عنه القائم على التوافق

يُقصد به أن يأتي التخالف بين لفظتين أو أكثر من ناحية، ويأتي التوافق أو الائتلاف أو مراعاة النظير من حال اللفظة ذاتها مع غيرها، وكأن المعنى به ترشيح لكل لفظة، ويتضح ذلك من ذكر: {فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} بعد ذكر كليم الله موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾[الأحزاب: 69]. وقد صُدرت آية الأحزاب بنداء المؤمنين، وفئة المشبه به هم (اليهود/ الذين آذوا سيدنا موسى عليه

السلام)، وهم ليسوا بكافرين؛ لذا بُني التشبيه على التخالف. ولم يقل: [يا أيها المؤمنون لا تكونوا كاليهود في إيذائهم رسولهم]؛ إذ اقتصر الأذى على فئة بعينها دون أخرى، فجعل الأذى محصورًا فيمن فعلوا ذلك، ناهيًا عن التشبه بهم، ذاكرًا رسوله الكليم (آذوا موسى) لمزيد من الوجاهة، لا سيما أن الخطاب القرآني بنى النظم على كليم الله: {فبرأه الله مما قالوا}، فتولى الله بعزته وحكمته براءته وتنزيهه، ثم جعل التذييل مضرب المثل قائمًا على وجاهته وعزة رسوله: {فكان عند الله وجيهًا}، فجاء من قبيل التوشيح.

والتشبيه في هذه الحال لا يحتاج إلى مزيد تقرير؛ إذ الفائدة التي تعود منه التشويه والتنفير من الهيئة المشبه بها، فقد استقرّ في نفوس المخاطَبين قبح ما تعرّض له نبي الله موسى عليه السلام من إيذاء قومه، بين عصيانٍ لأمره، وسخريةٍ من دعوته، واستهزاءٍ بمقامه؛ لذا أوثر بناء التشبيه على هذه الفنية البلاغية الدقيقة؛ ليشمل كل ما يدور في الذهن من افتعالهم الأذى دون حصر أو تحديد، فيكون التنفير أشد، والتحذير أكثر وقعًا في النفس.

والقول عام في تبرئة الرسول صلى الله عليه وسلم مما قاله أهل مكة حين بلغ سمعه صلى الله عليه وسلم من كلامٍ آذاه وأحزنه عن أمر زواجه بزينب بنت جحش، فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا؛ في ردٍّ إلهي حاسم، يُظهر فيه سبحانه براءة نبيّه الكريم مما نسبوه إليه كذبًا وزورًا. وأيًّا كان فالقول هنا بمعنى المقول، والمراد به مدلوله الواقع في الخارج لا في الذهن فحسب، فجاءت تبرئة الله تعالى بيانًا لإشراق مقام النبوة وطهارته من الأذى، ودحضًا لما تخرّصوا به من ادعاءات وبهتان.

وَلَمَّا طَمِعَ الرسول مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم في نصرة أهل مكة وإعانتهم له أعرضوا عنه، وصاروا من أشد الناس عليه أذًى، وأقساهم قلبًا، وألذعهم لسانًا. وفي حديث أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أُوذِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ فِي اللهِ»[5]. وقد ظل الرسول صلى الله عليه وسلم قلبه مفتوحًا للرحمة، ولسانه معقودًا بالدعاء، ويده مبسوطة بالعفو، يبلّغ رسالة ربه على بصيرة، حتى أكمل الله

به النعمة، وأتمّ به الدين رغم معاناته صلى الله عليه وسلم من أذى القول، وفجور الخصومة، وتكذيب الرسالة.

وقد وصف الخطاب القرآني نبيّ الله موسى عليه السلام بالوجاهة، وهي صفةٌ رفيعة تقتضي التحلي بالكمالات، والتخلّى عن كل ما يشين المقامات، والتأهّل لحمل الرسالة في أسمى صورها، ولا سيما إذا تعلّق الأمر بأولي العزم من الرسل، الذين اجتمع لهم كمال النفس، وسموّ الخُلُق، وصفاء السريرة، وهو ما يتناسب مع عظم الدور الذي قاموا به من تبليغ للرسالة، ومواجهة قوم أو عشيرة.

وإن كان هذا شأن سيدنا كليم الله، فرسولنا صلى الله عليه وسلم حبيب الله هو أعظم وجاهة، وأرفع مقامًا، وأعز جاهًا، وأرأف بالمؤمنين وأكثرهم رحمة وإحسانًا. وفي هذا تحذير للمؤمنين بألَّا يتكلموا على رسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم بما يؤذيه، ولا يظنوا به حيفا؛ لأنه كريم على ربه، وفيه تحذير بوجه عام من أذى الأبرياء، إذ إن الله تعالى إذا أحب عبدًا تولى بذاته العلية الدفاع عنه، فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: 38]. وإذا أحب الله تعالى عبدًا وضع له القبول في الأرض، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ"(6).

وإذا كان الخطاب القرآني قد ساق الوعيد للكفار والمنافقين الذين يؤذون رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨﴾ [الأحزاب: 57، 58]، إلا أن النهي هنا نهي عن تشبه المؤمنين بمن استحقوا اللعن والغضب في سوء أدبهم وعظيم

مرتكبهم مع سيدنا موسى عليه السلام، وهذا نهي عام. وقد يكون النهي عن تشبه المؤمنين –وفق الأحاديث السابقة التي أوردتها– بطائفة من قوم موسى لم يحسنوا الكلام عن رسولهم، مع عدم تكذيبهم إياه، يتضح ذلك من مناداته بلفظة (قومي).

وقد صور القرآن الكريم ذلك على لسان كليم الله متعجبًا مستنكرًا عليهم التعمد في أذيته في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: 5]. وهذا نهي على جهة الخصوص. وكيفما كان الأمر، فقد قبَّح التشبيه من يتعمد أذى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، كما أنه فيه وجوب التوقير والاحترام والأدب في معاملة رسول الله. وقد تغير وجه رسول الله وتأذى من كلام رجل من الأنصار حين قسَّم قسمة (حُنين)، ففي حديث ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِسْمَةً، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: وَاللَّهِ مَا أَرَادَ مُحَمَّدٌ بِهَذَا وَجْهَ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[7].

ومن التشبيه المنهي عنه تمثيل حال المؤمنين بحال اليهود والنصارى في فرقتهم واختلافهم، وقد روعي في انتظام التركيب التوافقي من خلال التناسب في الترتيب المعنوي، والتخالف القائم في تمثيل حال (المؤمنين/ الذين تفرقوا واختلفوا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾[آل عمران: 105].

جاء النهي عن التشبه باليهود والنصارى في آية سورة آل عمران في سياق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ثم أعقبه النهي عن التفرّق والاختلاف على نحوٍ يبيّن وحدة المقصد، واتساق الدعوة مع جوهر الشريعة. وفي هذا الموضع دلالة واضحة على وجوب اجتناب ما نُهي عنه على جهة التحذير والزجر من أن تقع الأمة فيما وقعت فيه الأمم قبلها؛ إذ إن التفرق –محور النزاع وشتات الأمر– يؤدي إلى الدعوة إلى المنكر، والكف عن فعل الخيرات، وهو خلاف المراد. وقد نهى عن الحالة

الشبيهة بحال الذين تفرقوا واختلفوا؛ حيث أُريد بالذين تفرقوا واختلفوا؛ الذين اختلفوا في أصول الدين من اليهود والنصارى من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق. مراعيًا الترتيب المعنوي؛ إذ الاختلاف في الآراء والعقيدة مُؤْذِن بالتفرقة، وعلى هذا يكون التشبيه المنهي عنه تتمة للآيات السابقة في بدء السورة. والمعنى: [ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم التوراة والإنجيل].

وقد تكون الآية تتمة للآية السابقة عليها في قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: 104]، والمعنى: [لتكونوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر؛ إذ إن مناط الألفة والمحبة هو الداعي لعدم التفرق والاختلاف، وهو الباعث على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]. ولعظم هذا التفرق والاختلاف الذي يؤدي إلى الكف عن الخيرات، وفعل المنكرات بُني التذييل على اسم الإشارة: (أولئك لهم عذاب عظيم)؛ تهديدًا وتحذيرًا للمتشبهين بهم في حال تفرقهم واختلافهم من بعد ما جاءهم البينات المانعة من الفرقة والاختلاف، وإيذانًا بعظم حلول العذاب فقد وصفه بالعظيم، لا سيما أنه احترس بقوله تعالى: { من بعد ما جاءهم البينات}، ففند العذر، وأقام الحجة عليهم بالقيد "(ومن بعد) جار ومجرور متعلقان باختلفوا، والمصدر المؤوّل (ما جاءهم البيّنات) في محلّ جرّ مضاف إليه. والهاء مفعول به مقدم، والبينات فاعل مؤخر"[8].

ولعظم ذنب الاختلاف وما ينتج عنه فقد حذَّر الرسول صلى الله عليه وسلم منه، ففي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم كَانَ يَأْتِي نَاحِيَةَ الصَّفِّ إِلَى نَاحِيَتِهِ، يُسَوِّي صُدُورَهُمْ، وَمَنَاكِبَهُمْ يَقُولُ: «لَا تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»[9]. والنهي عن الاختلاف نهي ملزم في أقسامه الثلاثة، الأول: قد يكون في الأصول وهو المشار إليه في الآية الكريمة، وهو أساس كل بلية وضلال، ومحور كل

فساد وانقسام. والثاني: قد يكون في الحروب، وهو الذي ينتج عنه الهزيمة– ربما لعدم نفاذ وصية قائد– ففي حديث سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»[10]. والقسم الثالث للاختلاف هو الحلال والحرام، وقد قطع الرسول صلى الله عليه وسلم الشك أمام كل مُراءٍ بقوله: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[11].

ومن التشبيهات المنهية ما جاء فيه وجه الشبه (توافقيًّا)، ويأتي التوافق من حال اللفظة ذاتها مع غيرها، وكأن المعنى به ترشيح لكل لفظة، يتضح ذلك من تعدد صفات التشبيه المنهي عنه (بطرًا، رئاء الناس، يصدون عن سبيل الله)، وكل لفظة تقود إلى غيرها كما سيأتي بيانه. تلك الألفاظ مثلت هيئة متعددة متلاحمة بُنيت على طريقة الترتيب المعنوي في قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ ﴾[الأنفال: 46، 47].

وأصل البطر الشق، وَقد بطرت الشَّيْء أَي شققته، وَأهل اللُّغَة يَقُولُونَ البطر سَوء اسْتِعْمَال النِّعْمَة[12]. والرياء إِظْهَار جميل الْفِعْل رَغْبَة فِي حمد النَّاس لَا فِي ثَوَاب الله تَعَالَى، وهو ليس من باب النفاق، فإن النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر، وسمي بذلك تشبيها بما يفعله اليربوع وهو أن يجعل بجحره بابا ظاهرا وبابا باطنا يخرج منه إذا طلبه الطالب. ولا يقع هذا الاسم على من يظهر شيئا ويخفي

غيره إلا الكفر[13]. والأصل: رياء فالهمزة الأولى بدل من ياء هي عين الكلمة، والثانية بدل من ياء هي لام الكلمة[14].

والأمر بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم أمر وجوب وإلزام، أمر يستلزم تحمل الشدائد والمصاعب، أمر يفضي إلى الوحدة والألفة، وفي مخالفة ذلك ما يؤدي إلى زوال القوة، ويوهن أمر الأمة، ويفسد صلاح نفوسها؛ لذا نهى عن ذلك مؤكدًا بذم الطرف الآخر، والنهي عن التشبه بصفاته، وأسلوب حياته؛ فإذا كان النهي عن التشبه بقوم مذمومين كان النهي أشد قبحًا في المنهي عنه. وقد عدد صفات التشبيه المنهي عنه (بطرًا، رئاء الناس، يصدون عن سبيل الله)؛ ونصب الأولى على كونها حالًا أو مفعولًا لأجله ثم عطف الصفتين عليها؛ تنفيرًا من تلك الصفات، وتقبيحًا لها؛ إذ إنها نابعة من قوم نُهي عن التشبه بهم، فلحقتهم المذمة. فقد نُهي المؤمنون عن أن يتشبهوا بالمشركين في حال خروجهم إلى عزوة بدر؛ إذ خرجوا خيلاءً وكبرًا، يطلبون الفخر والتظاهر بين الناس. ومن ثمَّ كان لزامًا على كل مؤمن أن يطهر نيته، ويجعل عمله خالصًا لوجه الله الكريم، منزهًا من العُجب، ومبرأً من كل رياءٍ أو مباهاة.

وقد وصف الخطاب القرآني الصفات المنهي عن التشبه بها بثلاث صفات؛ جاءت مرتين بالاسم (البطر، والرئاء)، لإعطاء الاسمية الثبوت والرسوخ، وكأن هاتين الصفتين كانتا جبلة في أهل الكفر، راسخة في نفوسهم، أما المرة الثالثة فجاءت بالمضارعة: (يصدون عن سبيل الله)، والمراد: (صدًا عن سبيل الله)، وصفة أهل الكفر وصدهم عن سبيل الله مقرونه بدعوة الرسل في كل زمان ومكان، وكأن الصد وجد عند قريش حينما أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم عن دعوته. وقد جاءت الصفات مرتبة ترتيبًا معنويًّا، فقد أعلن عن مجاوزة الحد في عدم شكر النعمة بأساليب المرح وغيرها، ثم عطف ما كان من رغبتهم في إظهار الجميل وبيان القوة حتى يرى الناس خروجهم؛ لحفظ عيرهم. وقد صور الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في قوله: "اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ، قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلائِهَا، وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ، وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ

اللَّهُمَّ فَأَحْنِهِمُ الْغَدَاةَ"[15]. وكان مقصدهم أن تهابهم العرب أبدًا، وأن يرى الناس قوتهم. وحيث إن مقصدهم مقصد تباهٍ لا طاعة عبر عن فسادهم بـ (يصدون)، فكان ثمرة الفساد لهم، ولمن يتبعونهم.

ومقصد التشبيه عدم اشتغال النفس بالبطر والرئاء والافتخار بالطاعة، بل الإخلاص في العبودية، وابتغاء مرضاة الله، والتخلق بخلق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وقد عبر الخطاب القرآني بالاستعارة المصرحة في قوله: (سبيل الله) بدلًا من دين الله؛ لصدهم عن كل سبيل مقصده مرضاة الله.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ ﴾ **[النحل: 92]، فالطرف الأول هم المؤمنون المأمورون بعدم نقض الأيمان، والتغرير والخديعة بكثرة المواثيق، والمنهي عن التشبه به تم التعبير عنه باسم الموصول (التي)؛ لاشتهارها بهذا الفعل. فنهاهم الله تعالى أن يكونوا مضرب مثل معروف بالسخرية والاستهزاء، ووجه الشبه متلاحم من أجزاء عدة؛ مقصده النهي عن الرجوع إلى التبلس بالفساد بعد التنعم بالصلاح. قال الفراء: إنها رَيْطَةُ بِنْتُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ كانت تغزل الغزل من الصوف فتُبْرمه ثُمَّ تأمر جارية لَهَا بنقضه. فلا تغدروا بقوم لقلّتهم وكثرتكم أو قلّتكم وكثرتهم، وقد غررتموهم بالأيمان فسكنوا إليها[16]. قال ابن الجوزي: هي ريطة الحمقاء امرأة من قريش تسمى ريطة بنت عمرو بن كعب، كانت إذا غزلت نقضته، قال ابن السائب: اسمها رايطة، وقال أبو بكر بن الأنباري: اسمها ريطة بنت عمرو المرية، ولقبها الجعرا، وهي من أهل مكة، وكانت معروفة عند المخاطبين، فعرفوها بصنعتها، ولم يكن لها نظير في فعلها، وكانت متناهية الحمق، تغزل الغزل من القطن، أو الصوف فتحكمه ثم تأمر خادمها بنقضه، قال بعضهم: كانت تغزل هي وجواريها، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن[17]. ويضرب بها المثل بقولهم: "قَوْلهم خرقاء وجدت**

صُوفًا"، وقولهم: (أخسر من الناقضة غزلها)[18]. وقولهم: "أَخْرَقُ مِنْ نَاكِثَةِ غَزْلِها".[19]

وقد بني وجه الشبه على الاتحاد والامتزاج والتلاحم في كل من الطرفين في قوة الإبرام ثم النكث بعد ذلك. فنهوا عن أن يكون حالهم كحالها في نقضهم العهد بعد توكيده. ووجه الشبه الرجوع إلى الاختلال والفساد بعد التحلي بالاتزان والصلاح. والغرض منه البرهان المصاحب، والقياس الموضح؛ لتحذير المؤمنين من ضعف الرأي وخور العزيمة، وفساد الإدراك وانتفاء الفطرة السليمة. وهو لب التشبيه هنا– لا تكونوا كالتي نقضت غزلها بعد قوة إحكام. وهذا تحذير بألَّا يجمعنا بهذا التمثيل صلة؛ إذ إن مراد التشبيه تقبيح الصورة المنهي عنها.

والمعنى المحوري للنقض: تَشْعِيثُ الشيء الملتئم ونَقْضُه كالخيط والحبل[20] وعبَّر بـ (نقض) بالضاد، مع ما فيها من قوة، فقد أطلق على اللغة العربية (لغة الضاد)؛ والنقد بالدال تمييز الحسن من الخبيث، أما بالضاد فهو الهدم والتقويض، وقد بني تشبيه المعقول على أمر حسي؛ لإبرازه في أجلى صورة وأقواها. يقول عبد القاهر: في جمالية التشبيه التمثيلي: إنّ أُنْس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وتأتيها بصريح بعد مكنيٍّ، وأن تردَّها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقُلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع؛ لأن العلم المستفادَ من طرق الحواسِّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة، يفضلُ المستفاد من جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخَبرُ كالمُعاينة، ولا الظنُّ كاليقين[21].

وقد أخذ الخطاب القرآني من البيئة المعيشة صورة مألوفة، وهي صورة (الغَزْل)، بما يشير إلى احتياجه إلى إحكامٍ وقدرة صنعة، وبما ينطوي عليه من جهدٍ وصبرٍ وطول أناة ودقة، فإذا نُقض بعد هذا كله، صار فعلاً عبثيًّا لا طائل منه، ولا

جدوى فيه، صار هباء منثورًا كسراب بقيعة، مما يدل على فساد العقل وانتفاء الفطنة. وقد لقبوا التي نقضت غزلها بأنها كانت (خرقاء)؛ نظرًا لذلك كله. وفي هذا تنبيه وزجر لخطورة النكوص عن العهد، أو نقض المواثيق بعد توكيدها؛ لما فيه من تقويض المقصد، وانتهاك لما كان ينبغي أن يُصان، وامتهان لما وجب توقيره. وهو ما يبرهن على أمرٍ عظيم الشأن في سياق الخطاب القرآني، ألا وهو: تحصين القيم، والثبات على العهود، وصيانة الجهد من العبث.

وقد وظف القرآن الكريم مادة (الغزل) بمعنى: المغزول؛ دلالة على إحكام الغزل وشدة فتله، ثم أردف بالتتميم الذي يعطي قوة النسج مظهرًا ملموسًا: (من بعد قوة)؛ بيانًا لقوة غزلها مما لا يستدعي الأمر إلى نقضه أو إفساد النفع به. ونصب (أنكاثًا) "بفعل محذوف، أي فجعلته أنكاثا، أو بتضمين (نقضت) معنى (صيرت) فهو مفعول ثان، أو النصب على المصدرية؛ لأن معنى (نقضت) نكثت، فهو مطابق لعامله في المعنى. أو (منكوثًا) بالنصب على كونه حالًا"[22]. وجاء بالجمع؛ أي: محلولًا من الفتل مبعثرًا، بعد أن كان مجموعًا محكمًا صار خيوطًا متعددة كحاله من قبل أن يكون مغزولًا. قال ابن قتيبة: "ومنه قيل لمن أعطاك بيعته على السمع والطاعة ثم خرج عليك: ناكث، لأنه نقض ما وكّد على نفسه بالأيمان والعهود، كما تنقض النّاكثة غزلها"[23].

ووظف المفعول الثاني (دخلًا) في قوله تعالى: {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ}؛ نصًا على الإفساد؛ إذ كانوا يقطعون المواثيق ويؤكدون العهود لحلفائهم فإذا وجدوا أعز منهم جانبًا وأكثر عددًا وأوفر مالًا نقضوا ميثاق أولئك وحالفوا هؤلاء. و (الدخل): المكر والخيانة، والحيل والدغل، يضْرب مثلا للرجل لَهُ منظر ولا مخبر له، يقول ابن عبد ربه الأندلسي: "ويطلق هذا على الرجل يكون ذا منظر ولا خير فيه[24]. والدَّخْل: العَيْبُ الباطن. يضرب لِذِي المَنْظَر لا خَيْر عنده[25]. والدخل مَا يبطن فِي الشَّيْء. يُقَال شَيْء مَدْخُول إِذا كَانَ فَاسد الْجوف، وَفِي الْأَثر هدنة على

دخن وعَلى دخل؛ أَي مصالحة على فَسَاد ضمائر[26]. ومن أمثالهم في هذا قولهم: "ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل"[27].

وإسناد الدخل للأيمان من باب المجاز الإسنادي أو المجاز العقلي، فقد أثبت للأيمان ما ليس لها فصار تعظيمها وتبجيلها وسيلة أو آلية لمكر أو خيانة أحد الطرفين، فبعد أن كانت وسيلة الاطمئنان لكلا الطرفين غدت وسيلة للغدر وما ينتج عنها من حقد وضغينة. ومن ثم بيَّن السياق علة النقض بقوله تعالى: {أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}، قال الفراء: هي أكثر، ومعناهُ لا تغدروا بقوم لقلّتهم وكثرتكم أو قلّتكم وكثرتهم، وقد غررتموهم بالأيمان فسكنوا إليها[28]. واسم التفضيل (أربى) بما يحمله من معاني الزيادة والكثرة والقوة والحسن يعطي معنى المفارقة بين الفريقين، والمعنى: لا يحملكم نكث الأيمان ونقضها أن تكون أمة أكثر عددًا وأقوى جيشًا وأحسن معيشة منكم هي السبب في نقض عهدكم. والمقصد –هنا– لا يحملكم كون المشركين أكثر عددًا وعتادًا على نقض أيمانكم والرجوع إلى الكفر بعد إيمانكم. وأنَّ محل كثرة عددهم وتفوقهم عليكم إنما هو ابتلاء من ربكم لكم؛ ليعلم من قوي إيمانه، وصدقت عقيدته ممن هو منها في شك.

ولزيادة التنفير من نقض الأيمان ختم الخطاب القرآني حاملًا الوعد والوعيد المؤكد بالقسم في قوله تعالى: {وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، حيث تظهر الأشياء على حقيقتها دون زخرف قول أو تصنع وتجمل في بيان هيئة، فمن جبل على مكاره الطبع، وزين له حب النكث والنقض، وأبطن شيئًا وأظهر خلافه فسيعلم صاحبه أنه منكب على وجهه خاسر الدنيا والآخرة. وحمل الوعد لمن يمشي سويًّا على صراط مستقيم.

(ب) التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على المشاكلة

المشاكلة ذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ **[الحشر: 19]؛ إذ النسيان مستعار للغفلة والترك، وحذف المشبه، واشتق من المشبه به الفعل، على سبيل الاستعارة المكنية التبعية.**

وقد جاء الخطاب القرآني في سياق التحذير من غفلة الإعراض عن الأوامر والنواهي، مبيّنًا صفات الفئة المحذر منها (نسوا الله)، والمقصد تغافلوا عن حقوقه تعالى، موظفًا الاستعارة التبعية، فقد شبه الإعراض عن آيات الله بالنسيان، وجاء الإعراض بمعنى النسيان، ثم حذف الأول، واشتق من الأخير الفعل. فجعلت الاستعارة الكلام موجزًا، والمعنى: (أعرضوا عن آيات الله ودلائلها في صدق رسوله صلى الله عليه وسلم). فجعل النهي عن قوم تحققت فيهم الصلة، وهي نسيان حقوق الله.

وأُخبر عنهم بالاسم الموصول (الذين)؛ لأنهم متعددون؛ فهم أهل نفاق وكفر في جميع الشرائع السماوية، فالإخبار عن قوم قد تحقق فيهم الصلة؛ يكون أدعى ليقظة النفس، وأحرى لتجنبها الأمور التي أدت إلى ذلك المعلن عنه بنفي التشابه المحقق في الفعل: (لا يستوي) في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ **[الحشر: 20]، لاسيما أن الجزاء من جنس العمل، فجاء بقوله تعالى: {فأنساهم أنفسهم}، فلم ينتفعوا بعلمهم، وأصاب حواسهم التعطيل، ولم يُجْدِ سمعهم وبصرهم في تدبر آيات الله.**

وقد عبَّر الخطاب القرآني عن الإعراض عن أوامر الله بـ (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)، ولم يقل على شاكلة آية سورة التوبة: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ **[التوبة: 67]، والتعبير في سورة التوبة جاء على سبيل المشاكلة، فالنسيان مجاز في الترك والانصراف عن الطاعة، ولا يجوز أن**

يكون الله تعالى نسيًّا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، قال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ **[مريم: 64]، وإنما جاء على مشاكلة قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ **[النساء: 142]، وقوله تعالى:** ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ **[الأنفال: 30]. أما في سورة الحشر فجاء قوله تعالى: {فأنساهم أنفسهم}، ونسيان النفس قد يكون بالسعي إلى ملذات الحياة لعبًا ولهوًا، وكم من ملذات تشغلها عن ذكر الله! وقد يكون نسيان النفس برؤيتها لأمر مفزع أذهلها وغيَّبها عن الأمر الحضوري.**

وجاء الإخبار عنهم باسم الإشارة (أولئك)؛ لاستحقاقهم الوصف بـ (الفسق)، ومقتضى البنية العميقة: [أولئك الفاسقون]، لكن الخطاب القرآني وظف ضمير الفصل (هم)؛ لجعل الوصف فيهم، لا يتعداه إلى غيرهم، فكأنهم أهل الفسق ومنبعه، فجعل جنس الفسق مقتصرًا عليهم. والفسق الخروج من الشيء، والانسلاخ منه. "وكأنَّ الفأْرَةَ سمِّيَتْ فُوَيْسِقَةً لخروجها من جُحرها على النَّاس"[29]. والفسق –في الْعَرَبيَّة– خُرُوج مَكْرُوه[30] قال الفراء في معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ **[الكهف: 50] خرج عَن طاعة ربه. والعرب تقول: فَسقت الرُّطَبة من جلدها وقشرها لخروجها منه[31].**

وغلبة الاسمية –في سياقات الفسق– دال على رسوخ الصفة في تلك النفس التي خرجت عن طاعة ربها؛ بعصيان أوامره وفعل نواهيه، فقد أخرج النفس عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكأنهم بهذا افتعلوا الخروج عن المكان الذي يناسبهم إلى مكان لا يليق بفطرتهم فلبثوا في العناء، وكُتِب عليهم العصيان. وعبر بـ (ال) للعهدية، أي أن الفاسقين هم المعهود منهم الإتيان بفواحش السيئات ومساوئ الأعمال، فجعل الفسوق ممثلًا فيهم مقتصرًا عليهم، كأنه لا يوجد في غيرهم.

وحتى يتقبل الله حج من أقبل عليه بقلبه وماله قال تعالى: ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ ﴾ **[البقرة: 197] فقد نهى الخطاب القرآني الحاج عن التلبث بهذه الصفة، فجاءت من قبيل تبادل الأساليب؛ والمقصد (فلا ترفثوا، ولا تفسقوا، ولا تجادلوا)؛ أي لا تقربوا هذه الأفعال بدءًا، فنفت جنس هذه الأفعال عن الحاج، فقد جاء بالإخبار والمراد النهي.**

(ت) التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على الإيغال والتصدير

يأتي الإيغال في الفواصل القرآنية خاصة، وفي قوافي الشعر، ويكون الكلام قد استوفى معناه قبل بلوغه ذلك المقطع، إلا أنه يمعن في الإتيان به؛ لكونه أوقع مبالغة، أو زيادة إيضاح، أو تأكيد سمة، أو تقرير صفة، ....، وكأن المتكلم قصد بإيغاله بأنه وصل منتهى حد المعنى الشارع فيه؛ تأكيدًا ومبالغة، يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ ﴾ **[الأنفال: 20 – 22].**

جاء القيد (وهم لا يسمعون) مجازًا في الترك والتولي، مراعيًّا في ذلك التصدير إيقاعًا ودلالة. وقد تم تصدير كلامهم بـ (سمعنا)، الدال على الإيهام بالطاعة؛ إذ إن السمع علامة القبول؛ نظرًا للانتفاع بالمسموع، لكن القرآن الكريم أوغل في بيان نفاقهم بالجملة الحالية: (وهم لا يسمعون)؛ لذا جاء النهي في خطاب المؤمنين بعدم التولي عن الرسول صلى الله عليه وسلم موغلًا بالجملة الحالية القائمة على التوشيح: {وأنتم تسمعون} الدالة على شخذ العزيمة والامتثال لطاعة الله ورسوله.

وقد جاء الخطاب القرآني في هذا الموضع في سياق التحذير البالغ للمؤمنين من التولي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتحذير من مغبة التمادي في

الخصومة أو التنازع بصفة عامة، سواء تعلّق الأمر بالغنائم أو بغيرها من شئون الدين والدنيا؛ إذ إن اقتراف ذلك يخرج الإيمان من القلوب، ويُمهّد- في حقيقته- للوقوع في دائرة الكفر، أو الالتحاق بدعواه من حيث لا يشعر المرء. فكان التحذير سدًّا لمنافذ الضعف، وتنبيهًا إلى أن التنازع والاختلاف لا يضعفان صفّ المسلمين فحسب، بل قد يهدّدان أصل الإيمان في النفوس، وهو ما يقتضي اليقظة والتمسك بحبل الطاعة والوحدة.

وقد بدأ الخطاب:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}؛ للامتثال إلى الأمر. وجاء بالأمر والنهي مقترنين في الآية [20] {أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ}؛ تذكيرًا لامتثالهم لأمر الخروج يوم بدر، وقد كانوا كارهين ذلك، فبيَّن لهم خير العاقبة؛ لامتثالهم لأمره، وهذا عود على بدء؛ فأصبحت الآيات كالتوشيح، يحقق الآخر مراد الأول، ويمهد الأول للآخر، ويؤكد ما أسفر عنه الأمر في بدء السورة في قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١ ﴾ [الأنفال: 1]، ثم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ ﴾ [الأنفال: 20]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ ﴾ [الأنفال: 46]. وإذا كان الإيمان حافزًا للطاعة، وباعثًا للخشية، وشحذًا للعزيمة؛ فقد جاء الخطاب القرآني جامعًا بين الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله، والنهي عن مخالفتهما أو التهاون بأمرهما. وقد حذر الخطاب القرآني من التولي عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وجاء ذلك مقترنًا بالنهي؛ ليظهر أثر الطاعة سرًا وجهرًا من جهة، والردع عن عن مسالك الانحراف من جهة أخرى؛ ليصير البناء التربوي في النفس المؤمنة أكثر اتزانًا. وقد عبّر عن ذلك بالاستعارة التبعية في قوله تعالى: { وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ}؛ فقد شبه العصيان والمخالفة بالتولي، وحذف الطرف الأول على سبيل المكنية، واشتق من الطرف الآخر الفعل المنهي على سبيل التبعية. ثم زاد تأكيد قبح المنهي عنه بالجملة الحالية: {وأنتم تسمعون}؛ إذ إن الطاعة كامنة في نفوسكم،

ومنافذ القبول لديكم سليمة من العطب والخلل، فلا تعرضوا بعد ذلك عن أوامره، واجتنبوا نواهيه.

ثم زاد أمر التولي قبحًا وتشويهًا بتشبيه من يفعل ذلك: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}، وقد صرح الخطاب القرآني بقيلهم: (سمعنا)؛ تمويهًا ونفاقًا؛ لبيان كذبهم وادعاءاتهم. وقد انتفى عنهم القبول، ولما يحقق السمع مراده بالجملة الحالية المصدرة بالمسند إليه (هم)؛ لتحقيق أن ما يتم الوصف به موجود فيهم، وهم متصفون به: (لا يسمعون)؛ تعريضًا بهم، ووعيدًا لهؤلاء الفئة من الكافرين والمنافقين. وتحذيرًا للمؤمنين من اتصافهم بهذا، وتوظيف الفعل للمضارعة؛ إذ إن الفعل هذا مستمر في كل زمان.

والخطاب في الآية التالية تأكيد لهذه الفئة، فكأن سائلًا سأل: (وما العقاب الذي يحل بمن نافق، وانتفى عنه قبول الحق)، فكان الجواب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾**، والتشبيه هنا من التشبيه الضمني، فإذا كانت صفة هؤلاء القوم ضَعف الإدراك، وانقطاع الحجة، والعجز عن الانتفاع بما يُسمعون؛ إذ إن فائدة السمع الانتفاع بالمسموع؛ فقد انتفى عنهم العقل المُسِبب في الهداية والإرشاد، فصاروا في عداد من لا يُرتجى منهم فقهٌ ولا تمييز. ومن هنا جاء التشبيه بأشدّ صور التنفير، فشُبّهوا بالدواب في فقدان الإدراك، بل هم أضل، فاستحقّوا أن يُنزلوا منزلة الصم البُكم، في إعراضهم وعجزهم وبلادتهم. وقد اخترت التشبيه الضمني بدلًا من التشبيه البليغ في قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾**، فربما قال أحد البلاغيين- هنا- إن التشبيه (تشبيه مضمر) قائم على الحذف، والتقدير: (هم كالدواب، هم كالصم، هم كالبكم) على شاكلة قوله تعالى:﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: 18]. وهذا القول مردود- من وجهة نظري- لوجهين؛ الأول: أن آية سورة البقرة بُنيت على حذف المسند إليه؛ لأنه معلوم من السياق في الآية السابقة، والتقدير: [هم صم بكم]؛ لذا**

فإن الأرجح فيه أنه تشبيه مضمر، وليس استعارة مصرحة. والوجه الآخر أن آية سورة الأنفال [22] جاء المشبَّهُ والمشبَّهُ به في صورة من صور التشبيه غير المعهودة، حيث تمَّ التلميح إليه، وجاء المشبَّه به برهانًا على إمكان ما أُسند إلى المشبّه: { قالوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}.

فأقام استدلالا وبرهانًا على عدم الانتفاع بالسمع، وهي دعوة ربما استنكرها هؤلاء الذين قالوا: {سمعنا}، ثم انتفى عنهم هذا بقرينة الحال: {وهم لا يسمعون}. وهذا أمر مستنكر لديهم غريب على أسماعهم أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في صفات العيب والنقصان (الصم/ البكم)، إلى أن يصير كأنه من جنس آخر مخالف لجنسه، وقد برهن الخطاب القرآني على ذلك بثلاثة أمور؛ (انتفاء العقل المؤدي إلى سد منافذ القبول، انتفاء الخيرية الممثلة في الصدور، الإصرار والتكبر الممثل في التولي والإعراض). فقد خرجوا بهذه الصفات عن جنسهم، فانسلخوا عن فطرتهم، حتي أنهم التحقوا بجنس آخر، ففقدوا أوصاف الإنسانية وتماهوا في صفات الحيوانية بل هم شر منها. والمغزى من التشبيه المنهي؛ تشويه الفعل وتقبيحه، فكأن البنية العميقة للخطاب: [لا تكونوا أيها المؤمنون كالذين تولوا وأعرضوا، فيكون سمعكم كسمعهم، وتصديقكم كتصديقهم، فينتفي عنكم الخير، وتكونوا على شاكلتهم كالصم البكم من شر الدواب]. وإن لإقامة الحجة عليهم بالمذهب الكلامي أثرًا عظيمًا في تجنب المكروه والكف عن المنهي عنه.

(ث) التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على الكناية

ويقصد به قدرة المتلقي على استخراج الدال الغائب من ذكر الحالة التمثيلية المنهي عنها، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم: 48]، والخطاب في ظاهره خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم لكنه يحمل في طيّاته تحذيرًا لكل من تقلّد مسئولية أو وُكِل إليه أمرُ رعية،

فيجب عليه أن يتجمل بالصبر وألَّا يبادر بالغضب، فإن المقام يقتضي التؤدة، وسعة الصدر، تأسّيًا بأعظم الخلق خلقًا صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في سياق الرد على مزاعم الكفار ومطاعنهم في القرآن الكريم، وحث الله تعالى رسوله على الصبر على أذاهم، وإبلاغه رسالته، والأمر بالمداومة عليها، وعدم الفتور منها، ونهيه ألَّا يكون حاله كحاله فلا يوجد منه الضجر والمغاضبة فيُبَتلى ببلائه عليه السلام؛ إذ امتحن في ثقل الرسالة، وكان سبب إيمان قومه دنو العذاب منهم، وقرب غشيانه لهم، فنهاه سبحانه وتعالى عن التشبه بسيدنا يونس عليه السلام في عدم تعجله الأمر؛ إعلاءً له صلى الله عليه وسلم ولأمته على سائر الأمم. والتقدير: [لا يكن حالك كحاله؛ لئلا يحدث لك مثل ما حدث له من سجن في بطن الحوت فصار محمولًا على السكوت، وعدم القدرة على التصرف حتى امتلأ كربًا وهمًا وغمًا ففرج الله عنه ذلك بالتضرع وتاب عليه واجتباه].

وقد بدأ الخطاب القرآني بالأمر (اصبر)، والصبر بما يحمله من حروف دال على الصبر على المشقة والمكروه؛ وأردف (الحكم) للصبر؛ والمراد الأمر، والمقصد: [اصبر لأمر ربك]، وإضافة الرب هنا؛ تلطيف للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له عما يجده من عناء في تبليغ رسالته. ثم اقترن النهي (لا تكن) بأمر الصبر؛ للتحذير من مغبة عدم الصبر في الجملة الحالية: (وهو مكظوم). وحيث إن طرفي التشبيه المنهي عنه أخذت صورتها الوحيدة هنا بين رسولين كريمين، فكان النهي عن صيرورة ما آل إليه سيدنا يونس من حال الضجر التي آلت به إلى الكظم.

والتعبير بقوله تعالى: { كصاحب الحوت}، من الكناية عن موصوف، فقد علم أن سيدنا يونس من اقترانه ببطن الحوت وملازمته له فترة زمنية ثم نبذه بالعراء، صار هذا اللقب كأنه علم له. ثم أظهر حاله بقوله: (وهو مكظوم)، والكظم: كَظَمَ غيظه كَظْما: اجترَعه، فهو رجلٌ كَظيمٌ. والغَيْظُ مَكْظومٌ. وقومٌ كُظَّمٌ، أي ساكتون[32]. وأصل الكلمة تدور حول الإمساك قال ابن فارس: الْكَظْمُ: اجْتِرَاعُ الْغَيْظِ وَالْإِمْسَاكُ عَنْ

إِبْدَائِهِ، وَكَأَنَّهُ يَجْمَعُهُ الْكَاظِمُ فِي جَوْفِهِ. وَالْكُظُومُ: السُّكُوتُ[33]. والمعنى: ألّا يكون حالك – في مقام التكليف والابتلاء – كحال من ضاق صدره وامتلأ غيظًا.

ومقصد النهي: ألّا يشتد به الكرب مثلما اشتد بسيدنا يونس عليه السلام، ثم لا يدري كيف سيكون انفراجه ومتى سيكون. وقد جاء (فعيل/ كظيم) بمعنى: (مفعول/ مكظوم)، وإني أرى أنها أشد قوة في التعبير في موضعها من لفظة كظيم؛ إذ إن الحال الذي عليها سيدنا يونس أجبرته على ذلك وألجأته إلى تداعي أنواع الحزن والإمساك عن إبدائها، فهو في بطن الحوت لا يراه ولا يسمعه إلا السميع البصير، فكأنه اجترع كل ألوانه في جوفه عليه السلام حتى تاب الله تعالى عليه، وألهمه الدعاء، وأنجاه من الغم: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الأنبياء: 88]، والغم أشد من الكرب، فالغم انفعال نفسي وخارجي اجتمعا على النفس؛ لذا قالها في حق سيدنا يونس عليه السلام، أما في حق الأنبياء فجاء بلفظة الكرب، كما في حق سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ ﴾[الصافات: 75، 76]، وفي حق سيدنا موسى وهارون: ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥ ﴾ [الصافات: 114، 115].

وقد عبر القرآن الكريم في حق سيدنا يعقوب عليه السلام بلفظة (كظيم)، في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ ﴾ [يوسف: 84]، وقد جاءت لفظة (كظيم) في حق سيدنا يعقوب عليه السلام بمعنى (كاظم)، والكظيم: مبالغة؛ أي أنه كاظم لحزنه يبكي في خلوته، لكنه غير مجبر على السكوت بل ظهر على حاله بدليل قوله تعالى: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ}. وأسوق دليلًا آخر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ ﴾ [النحل: 58]؛ أي ازداد حنقًا وغيظًا على امرأته، وهذا أمر مرئي للعيان بقرينة قوله تعالى: { وجهه مسودًا}. وفي هذا الخطاب دعم للرسول صلّى الله عليه وسلم

وتقويته بالصبر فى مواجهة كيد المشركين ومكرهم بتقديم صورة حقيقية من أولي العزم من الرسل. ودعوة لكل طالب علم في محرابه، ولكل مسئول في مكانته أن يكون دعامته الصبر وقوة التحمل على ما يراه من مكروه، وأن يدفع حنق غيظه بقوة صبره، وما يكون ذلك إلا بشدة إيمانه بالله تعالى.

(ج)التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على تخالف النسق

ويقصد به أن يجمع المتكلم بين أمر وما يناسبه من وجه من الوجوه ثم ينهي الطرف الأول على التشبه بالطرف الثاني في مجموع صفاته كما في قوله تعالى:﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾[الحديد: 16][34].

فالتناسب في الآية الكريمة قائم من جهة بين خشوع الذين آمنوا لما نزل من الحق، وبين قساوة أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد، والمواجهة قائمة بين خشوع القلب في الحالة الأولى، وقساوته في الحالة الأخرى، والتخالف قائم من الجمع بين الحالين، حال المؤمنين، والحال المنهي عن التشبه بها وهي حال الذين أوتوا الكتاب وما حلَّ بهم.

وقد يسأل سائل أين النهي هنا، وأقول: إن (لا) في قوله تعالى: (لا يكونوا) قد تكون نافية، والواو حرف عطف قد عطف الفعل على (تخشع)، وقد تكون (لا) ناهية، ويكون ذلك انتقالًا إلى نهي المؤمنين عن كونهم مشبهين لمن تقدمهم من اليهود والنصارى، وقد قرئت: "(لا تكونوا)"[35]، قال الفراء: "ولو كان جزمًا كَانَ صوابًا عَلَى النهي"[36].

والنهي على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب أبلغ؛ فتوجيه الخطاب للمؤمنين، وهم حضور. وقد جاء الخطاب من الله عزوجل للمؤمنين بالاستفهام المنفي المنتج دلالات الاستبطاء لخشوع تلك القلوب التي أفاض الله عليه محبته

وفضله، وإلى جانب تلك الدلالة فهناك دلالة أخرى وهي التحذير من مغبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة فيطيل عليهم الأمد فتقسو قلوبهم كمن سبقهم. وعلى هذا فإن في الخطاب دلالة حث على الإيمان، ودلالة تحذير من الوقوع في التقاعس فيجر عليهم قسوة السابقين، وما كنا لنرى تلك الدلالات لو أن (لا) كانت للنفي. والتقدير على النهي: [لا تكونوا كغيركم ممن قسا قلبه، فسق عن أمره، فلم يجدِ معهم الوعظ ولا التذكير]. وقيل في سبب نزولها عَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: " لَمَّا قَدِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، أَصَابُوا مِنَ الْعَيْشِ مَا أَصَابُوا بَعْدَمَا كَانَ بِهِمْ مِنَ الْجَهْدِ، فَكَأَنَّهُمْ فَتَرُوا عَنْ بَعْضِ مَا ، فَنَزَلَت"[37]: ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ١٦ ﴾، وقد روي أن أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَهَرَ فِيهِمِ الْمِزَاحُ وَالضَّحِكُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هذه الآية[38].

وفي بلاغة هذه الآية:

– الاستفهام المنفي القائم على تعدد الدلالات، منها التقرير كإجابة ابن عمر رضى الله عنه في الأحاديث السابق ذكرها: بَلَى يَا رَبِّ، بَلَى يَا رَبِّ. أو دلالات الاستبطاء كقول ابن مسعود رضي الله عنه ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، أو دلالات الإيقاظ، يؤكد ذلك أن قومًا أصابهم رغد العيش بعد الكد والتعب فكأنهم فتروا عن العبادة، أو قوم شاع فيهم المزح والضحك، أو دلالات التذكير، وهذا طلب نفر من الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم: "لو ذكرتنا يا رسول الله".

– توظيف الفعل (آن)، الدال على النضج والاكتمال، أي هذا وقته ووجوبه، يقول الراغب: ألم يقرب إناه. وآنَيْتُ الشيء أُنِيًا، أي: أخّرته عن أوانه، وتَأَنَّيْتُ: تأخّرت، واستأنيته: انتظرت أوانه، ويجوز في معنى استبطأته[39]، وهو من بُلوغ الشَّيْء مُنتهاه، وأَنَّيْت فِي الشَّيْء، إِذا قَصّرت فِيهِ[40]. والمعنى على الاستبطاء: [ألم يحن إلى الآن خشوع القلب وقد جاءهم الحق؟].

- التعبير باسم الموصول: (للذين آمنوا)؛ ولم يقل: (للمؤمنين)؛ لاستحقاقهم ما في حيز الصلة، وما نَعَتهم من أوصاف (خشوع القلب لذكر الله، والإيمان بما نزل من الحق). وعلى هذا فقد ذكر الخطاب القرآني آليات وجوب الخشوع لله ألا وهي: (النعت بالإيمان، ذكر الله، ما نزل من الحق).

إسناد القلوب للخشوع، ولم يقل الخضوع، والخُشُوع: الضّراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح. والضّراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب، وري عنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: «كَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ عُودٌ مِنَ الْخُشُوعِ»[41] ولذلك قيل فيما روي: «إذا ضرع القلب خَشِعَتِ الجوارح»[42] قال تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء: 109]. ويتضح من ذلك أن الخشوع ينبغي أن يكون ثابتًا مستمرًا لا ينقطع بأي حال من الأحوال، وقد رَأَى ابْنُ الْمُسَيَّبِ رَجُلًا يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: «إِنِّي لَأَرَى هَذَا لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»[43] ولا يكون الخضوع كذلك، وإن كان فليس خشية للمخشوع، وليس حبًا وفناءً في المحبوب، وليس رغبةً في الوصال؛ لذا قرن الخشوع بالفلاح والصلاة، أي المداومة عليها، فإذا خشع القلب سكنت الجوارح، وكان الإنسان أبعد عن اللهو والمرح، وإذا كان هذا حاله بُعد عن اللغو، ولزم التدبر والذكر فامتلأ قلبه بتعظيم الذات، وفاضت على جوارحه العبادات، وتحرر من الملذات، وسارع إلى الخيرات.

بلاغة القيد في قوله تعالى: (لذكر الله وما نزل من الحق)، ذكر العام وأتبعه بالخاص؛ إذ إن الذكر يتضمن القرآن، وقد عبَّر الخطاب القرآني عن القرآن بالذكر في قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء: 50]، وقد عبر عن الذكر بصفة عامة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: 2]. وقد ذكره عامًا ثم خُصص في قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس: 69]، لكنه أراد هنا في هذا السياق العموم أولا بقرينة

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ ﴾ [الزخرف: 36]، وكأنه جعل حياة المؤمن كلها ذكر، ثم خصص القرآن؛ ليعم الذكر الأفراد جميعًا من يقرأ ومن لم يستطع. وعن ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَكْثِرُوا الْكَلَامَ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ يُقَسِّي الْقَلْبَ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْقَلْبُ الْقَاسِي(44).

– يتضح من ذكر اللام في قوله تعالى: { لذكر الله} تفسير الخشوع بالامتثال لأوامر القرآن الكريم ونواهيه، والانقياد لأحكامه والعمل بما فيه، وعلى هذا فإن اللام صلة للخشوع، وقد تكون اللام للتعليل، والمعنى على ذلك: ألم يحن الوقت أن ترق قلوب المؤمنين لأجل ذكر الله وقرآنه العظيم فيسارعوا إلى طاعته والبعد عن معصيته؟! وَعَنْ نَافِعٍ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَيَمُرُّ بِالْآيَةِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ فَيَقِفُ فَيَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَيَدْعُو، وَرُبَّمَا بَكَى، وَيَمُرُّ بِالْآيَةِ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ فَيَقِفُ وَيَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ وَيَدْعُو، وَرُبَّمَا بَكَى، وَكَانَ إِذَا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ﴾ [الحديد: 16] بَكَى، وَقَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، بَلَى يَا رَبِّ"(45).

– أما التوجيه الأسلوبي في قراءة النهي سواء أكانت بالتاء: (لا تكونوا)، أم بالياء فهو على تقدير: [أبلغهم ألّا يكونوا على شاكلتهم]، وهو من قبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وهو أسلوب أبلغ أثرًا، وأشد وقعًا في النفس، كما تمّ التنبيه عليه آنفًا.

– وعلى قراءة النفي يكون المعنى: [ألم يحن لهم ألّا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب]. يقول الآلوسي: " وعلى النفي هو في المعنى نهي أيضا، والنهي مع الخطاب أظهر منه مع الغيبة."(46)

– التعبير بالاسم الموصول (الذين أوتوا الكتاب) ليناسب التعبير بـ (الذين آمنوا)، على سبيل المخالفة؛ إذ إنها الضد غير المباشر؛ لذا لم يأت التعبير: (الذين

كفروا)؛ لأنهم اتبعوا رسلهم، ثم أورثتهم الغفلة المستمرة القسوة، لذا جاء التشبيه ناهيًا عن التشبه بهم. ثم عبر هنا بالفعل المبني للمجهول: (أوتوا)؛ إذ المقام مقام ذم، وليس مدحًا، فالمقام نهي عن اتباعهم لغفلة ارتكبوها، ولقسوة قلب جلبوها فخاطبهم بـ (أوتوا)، بدلا من (آتيناهم). والموصول يعم اليهود والنصارى، "وكانوا كلهم في أوائل أمرهم يحول الحق بينهم وبين كثير من شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله تعالى ورقت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة، وزالت عنهم الروعة التي كانوا يجدونها عند سماع الكتابين، وأحدثوا ما أحدثوا واتبعوا الأهواء وتفرقت بهم السبل"[47].

– بلاغة القيد في قوله تعالى: { من قبل}؛ ذكر الظرف –هنا– مع إمكانية حذفه في غير القرآن الكريم فنقول مثلًا: [ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب فطال عليه الأمد]، أقول إن الاستغناء يؤدي إلى توهم المخاطَب بأن النهي عن التشبه اقتصر على فئة بعينها، وهي الفئة المعاصرة للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن ذكر التتميم لمنع توهم ذلك، فخصَّ السابقين من أهل الكتاب، والمخاطبين منهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ويكون تقدير المعنى في بنيته العميقة كالآتي [أن السابقين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فكيف لهؤلاء وقد تطاول عليهم الزمن؟!]، كما أنه يدلل على معرفة المخاطَب بالفترة الزمنية المشار إليها، وكأنها صارت مثلًا وعبرة لهم فليتعظوا.

– بلاغة القيد في قوله تعالى: { فطال عليهم الأمد}، والمقصود به الفترة الزمنية التي أوصوا بها باتباع الشرائع السماوية، ثم خالفوا تلك الشرائع ولم يعملوا بها، وطول الفترة الزمنية يقتضي حلم الله بهم، وعدم تعجيل العذاب لهم. وطول الأمد مع عدم اتباع نهج الرسل يورث القسوة، والقسوة مبدأ الشرور وتنشأ من طول الغفلة والبعد عن نهج الله. وعَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، قَالَ: " لَمَّا قَدِمَ أَهْلُ الْيَمَنِ فِي زَمَانِ أَبِي بَكْرٍ، فَسَمِعُوا الْقُرْآنَ جَعَلُوا يَبْكُونَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «هَكَذَا كُنَّا، ثُمَّ قَسَتِ الْقُلُوبُ»[48].

وفرقوا بين الأمد والغاية، فالأمد حَقِيقَة، والغاية مستعارة وَيكون الأمد ظرفا من الزَّمَان وَالْمَكَان، فالزمان في الآية التي نحن بصددها، والمكان في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران: 30]. والأَمَد والأبد يتقاربان، لكن الأبد عبارة عن مدّة الزمان التي ليس لها حدّ محدود، ولا يتقيد، لا يقال: أبد كذا. والأَمَدُ: مدّة لها حدّ مجهول إذا أطلق، وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، والفرق بين الزمان والأمد أنّ الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عامّ في المبدأ والغاية[49] والأمَدُ مُنْتَهى الْأَجَل، وللإنسان أمَدَان أَحدهمَا ابتداءُ خَلْقِه الَّذِي يظْهر عِنْدَ مولده، والآخر الموتَ وأَمَدُ الخيلِ فِي الرِّهان مَدَافِعُها فِي السباق، ومنتهى غايتها الَّتِي تستبق إِلَيْهِ"[50].

وجاء التعبير بقسوة القلوب، وهو غلظ القلب، وأصله من: حجر قَاسٍ[51] في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة: 13]، وقرئ: "قَسِيَّةً"[52] أي: ليست قلوبهم بخالصة، من قولهم: درهم قَسِيٌّ، وهو جنس من الفضّة المغشوشة، ومنه قيل للدراهم التي قد مَرَنَتْ وطال عليها الدهر: (قَسِيَّةً) [53]، ومعنى قاسية: شديدة، ومعنى قسّية: رديئة، وكل شيء ذهب رونقه وطال عليه الأمد وذهبت رقته فقد جفا وقسا، واستعيرت اللفظة للقلوب التي استمرت على المعاصي، فهي من باب الاستعارة المكنية التبعية في المشتقات.

– وقراءة: (قسيّة) أبلغ في الذم من قراءة قاسية؛ حيث إن وزن (فعيل) أشد مبالغة في كون القلوب ليست بخالصة الإيمان، بل شابها الكفر فأضحت بيئة فاسدة غير صالحة لتعمير الإيمان فيها، وقد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قلوب اليمن، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بِيَدِهِ نَحْوَ اليَمَنِ فَقَالَ «الإِيمَانُ يَمَانٍ هَا هُنَا، أَلاَ إِنَّ القَسْوَةَ وَغِلَظَ القُلُوبِ فِي الفَدَّادِينَ، عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الإِبِلِ، حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ فِي رَبِيعَةَ، وَمُضَرَ»[54].

– أما التعبير في قوله تعالى: { وكثير منهم فاسقون}، فأقول إن اسم الفاعل مع دلالته على التجدد والحدوث إلا أنه يقع في موقع متوسط بين الفعل والصفة المشبهة فهو أدوم وأثبت على الفعل. فإن كلمة: (قائم) أدوم وأثبت من قام أو يقوم، ولكن ليس ثبوتها مثل ثبوت: (طويل)، أو (قصير)، فإنه يمكن الانفكاك عن القيام إلى الجلوس أو غيره ولكن لا يمكن الانفكاك عن الطول أو القصر[55]. وجاء الوصف للأشخاص بلفظة (كثير)، بدلًا من (أكثر)؛ إذ إن السياق– هنا – جاء موجزًا، ناهيًا عن التشبه بهم؛ لما آلوا إليه من قسوة قلوبهم وغلظتها، وتجافي أذهانهم عن سماع الحق، فاستعمل [كثيرًا]؛ لكونها دالة على ثبات الصفة وتمكنها فيهم. أما اسم التفضيل (أكثر)، فقد جاء في سياقات الإطالة في الذم، وتعدد المثالب كما جاء في سورة المائدة.

(ح)التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على النظائر النصية

ويقصد به تواجه حالين أو أكثر في معنى معين؛ لمعرفة حدود التماثل والتفارق بين وضعين مختلفين؛ توصلًا للمعنى المراد. وهو –هنا– ليس على جهة العموم بل خاص بالنهي عن التشبه بالمنهي عنه، وقد جاء وضعية التشبيه على حال مخالف، فلم يقل [يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا]، وإنما عدد الصفات المؤهلة إلى الكفر كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾ **[البقرة: 264]**

إن طرفي التشبيه قائمان على تشبيهات متناسقة داخل الطرف الواحد، فالطرف الأول منهي عن إبطال الصدقة بـ (بالمن والأذي)، والطرف الآخر المنهي عن التشبه به (ينفق ماله رئاء الناس، لا يؤمن بالله واليوم الآخر)، ثم بنى على تلك الحالة تشبيهًا تمثيليًّا، ليصبح التشبيه أكثر دورانًا وأشد تحذيرًا.

وحاصل فحوى الخطاب تحذير المتصدق من إيذاء المتصدق عليه، وقد أوسع هذا الخطاب زجرًا وردعًا، وترغيبًا وتحبيبًا. أما التحبيب؛ فالنداء التنبيهي في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}؛ فالوسم بالإيمان يقتضي تنفيذ ما يؤمر به، والكف عما ينهي عنه. وجاء الترغيب عن طريق توجيه الخطاب إليهم بعدم إبطال (الصدقات)، وهو يستدعي أنهم قد تصدقوا بالفعل، فلا داعي إلى إبطالها بكثرة المن والأذي، هو أوقع في الكف. أما التنفير والتحذير فقد وقع بالألفاظ والتمثيل، فجاء اللفظ الأول في قوله تعالى: (تبطلوا) بما يحمله من قوة تأثيرية سلبية في وجدان المتلقي، بأن الله أحبط عمله ولم يصبح مثابًا عليه، وأما جملة التحذيرات الأخرى فمن التشبيهات النووية الجزئية في تشبيه النسق المركب التمثيلي القائم على تناسب حال المرائي وما نعت به من صفات.

وعطف الأذى على المن، من عطف العام على الخاص. والمن له معنيان؛ الأول: يدل على القطع والانقطاع، يقال: يُقَالُ: مَنَنْتُ الْحَبْلَ: قَطَعْتُهُ، وَالْمَنُّ: الْإِعْيَاءُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْيِيَ يَنْقَطِعُ عَنِ السَّيْرِ. والآخر يدل على اصطناع الخير، وقطع الإحسان، وهو الاعتداد[56]. والمن –هنا– اعتداد الصنيعة على المُعْطَى؛ وفي حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ»[57]، والمن المذموم يفسد الصنيع الحسن، وفي حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عن الرسول صلى الله عليه وسلم: ثلاثة يبغضهم الله عزوجل: "الْبَخِيلُ الْمَنَّانُ، وَالْمُخْتَالُ الْفَخُورُ، والتَّاجِرُ الْحَلَّافُ، أَوِ الْبَائِعُ الْحَلَّافُ"[58]، وفي رواية: ثَلَاثَةً يَشْنَؤُهُمُ اللَّهُ: «الْبَخِيلَ وَالْمَنَّانَ وَالْمُخْتَالَ»[59]. والمن : الإنعام، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ

مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خَلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ»[60]، والمعنى أكثر جودًا وكرمًا من أبي بكر رضي الله عنه.

والأذى: توبيخ المُعْطَى، والتطاول عليه، ويكون بالسخرية والاستهزاء. والمن نوع من الأذي؛ إذ إنه اعتداد بالصنيع وافتخار به فيؤذي غيره بالتعالي عليه. فنهي عن هاتين الصفتين؛ لأنهما يبطلان الصدقة وهما من قبيل الرئاء المنهي عن التشبه به؛ إذ الرئاء يقتضي الجهر والعلانية؛ فبالغ في إراءة الناس عمله محبة أن يروه ليفخر عليهم. والمرائي يكثر من إظهار الفعل الحسن وهذا يتلاقى مع المن؛ طلبًا للمدح والثناء، فاختلطت الصدقة بما يشوبها من تعالٍ وفخر وتباهٍ، فضاع ثوابها، ولم ينتفع بها صاحبها. وكأن المعنى: [لا تذهبوا ثواب صدقاتكم بالمن على الفقراء، ومقابلتهم بالسخرية والاستخفاف والتعالي، ولا تجعلوا إنفاقكم إنفاق المرائي؛ تنتظرون المدح والثناء].

والتشبيه المنهي عنه: [لا تكونوا في إتباع صدقاتكم بالفخر والاعتداد والتطاول على المعْطَى كالذي ينفق ماله طالبًا المدح والثناء، وهو لا يؤمن بالله ولا يرجو ثوابه]، ووجه التلاقي إبطال الصدقة، وعدم الانتفاع بأجرها؛ إذ كلاهما أبطل أثر الصدقة وجرّدها من معناها الأخلاقي والروحي. وزاد ذلك تنفيرًا بوصف حاله بـأنه: { وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}. فكان ذلك أبلغ في بيان فساد القصد، وسقوط العمل.

– وأتبع هذا التشبيه تشبيهات نووية منبثقة من حال المشبه به/ المرائي، وهو عائد في الوقت ذاته إلى نهي المؤمنين عن المشبه به وأحواله، فمثل هذا المرائي كمثل (صفوان)، والصَّفَا: العريضُ من الْحِجَارَةِ، الأمْلس، جمع صفَاة، يُكتب بِالْألف، وَإِذا ثنّي قيل: صَفَوان، وَهُوَ الصفْواءُ أَيْضا[61]. والصفواء: الحجارة اللينة المُلْس، والواحدة صفوانة[62]. وسر توظيف اللفظة (الصفوة)، وإتباعها بالتتميم

(عليه تراب)، أن الصفوة من الحجارة تكون ملساء فلا يثبت ولا يستقر عليها مطر، ومن ثم فلا وجه للانتفاع بها في إزكاء زرع، أو وجوده بالكلية، أو أن قلب المرائي قاسٍ كقسوة الصفوان، وأن قلبه ليس صالحًا للإيمان، وأعماله ليست قابلة للجزاء، كمثل الصفوان غير الصالح للإنبات، أو أن الحجارة الملساء تصاب بالمطر وتعكس أشعة الشمس فتبهر الناظر حتي إذا جاءها لم يجد عليها شيئًا، كذلك أعمال المرائي إذ انتظر الجزاء لا يثاب عليها.

– ووجود التربة عليها زيادة في طمعه في خصوبتها. وقصدية الخطاب إظهار عمل المرائي بكونه هباءً منثورًا، فمثَّل حال إنفاقه بالحجارة الملساء العريضة الذي يغشاها التراب. وهذا يخيل للرائي أنها تربة طيبة صالحة للزراعة، فيطمع الزراع في زراعتها حتى إذا أصابها المطر الشديد كان مدعاة لنمو الزرع، لكنه كان جارفًا لتلك التربة تاركًا الصفوة صلدًا صلبًا لا زرع فيه ولا ماء، فارغًا لم يحتو على شيء. والتقدير: [لا تنفقوا إنفاقًا متبوعًا بالمن والأذي كإنفاق المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، والذي حال إنفاقه كحال صخرة عريضة ملساء غطاها التراب وأصابها المطر الشديد متأكدًا أن الصخرة بما عليها تجر النفع، وتزهر الزرع، لكن سرعان ما جرفها الوابل فلم يبق على شيء إلا الصخرة الملساء]. والخطاب بما يحمله من شحنة سلبية جعلت المنفق المرائي رجع بخفي حنين فباء بالخيبة.

ثم أتبع تلك التشبيهات النووية تشبيهًا آخر منهيًّا عنه: { لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا}، فهي حال أخرى من حال المنفق المرائي، فهو ينفق لغير فائدة أو نفع يعود عليه، فلا يثاب على فعله. ويجوز أن يكون حالًا للصفوان الذي خيل للرائي بأنه تربة خصبة، ولكن هيهات. وفيه تمثيل أيضًا لحال المرائي، فمثل عدم الانتفاع بما أنفق، كمثل الصفوان في عدم انتفاعه بالمطر، وأي مطر فإنه وصف بـ(الوابل)؛ لشدته. أي لا يستطيعون الانتفاع بهذا المطر الشديد، ولا تلك التربة التي خيلت إليهم أنها تنبت الكلأ، وكل ذلك يصب في تشنيع حال المشبه به المنهي عنه؛ زيادةً في تأكيد التحذير من إبطال المؤمنين لصدقاتهم وإتباعها بالمن والأذى. وأقول إن

هذه التشبيهات المتفرقة لا تعطي معنى متكاملًا إلا في إطار المجموع أو في إطار التركيب، وإنما جئت بها هكذا بيانًا للقارىء في جمال النظم التركيبي للخطاب القرآني، وكيفية توظيفه للألفاظ.

– وجملة {والله لا يهدي القوم الكافرين} جاءت على الاستئناف تذييلًا، وهو نوع من التذييل ذي الاستقطاب المتماثل[63]؛ وهو لا يحمل هنا ترديدًا لفظيًّا، ولكنه يحمل تحذيرًا للمؤمنين أن يكونوا على شاكلة الكافرين في أعمالهم عامة، وفي التباهي والتعالي والفخر والتطاول على الفقراء خاصة، أو جاءت إجابة لسؤال سائل: ما الذي يفعله الله مع من كانت هذه صفته وتلك حاله؟ فكان الجواب حاملًا زيادة في المحتوى القضوي تحذيرًا وتنفيرًا بنفي الهداية، مُصَدِّرًا الجواب بالاسم الأعظم؛ لإثارة الرهبة والتخويف والحذر من إيقاع المن والأذي قولًا وفعلًا؛ بأبلغ أسلوب، وأعذب بيان.

– فإن قيل لم قال: {القوم الكافرين}؟، كان الجواب أن هذا المرائي لا يؤمن بالله ورسله، ولا يصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال، فأحبط شركه أعماله، فكما أبطل شركه إنفاقه وأعماله فلم يجدِ خيرًا منها، فإن التباهي والاعتداد بالذات وإيقاع الاستخفاف يبطل جزاء صدقة المؤمن.

ويتضح من ذلك الحث على إخفاء الصدقات؛ حفاظًا على ماء وجه المستحَق لها، قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة: 271]، وفي الحديث عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ كِتْمَانُ الصَّدَقَةِ، وَكِتْمَانُ الْوَجَعِ، وَكِتْمَانُ الْمُصِيبَةِ»[64].

– وقيل: "لا خير في المعروف إذا ذكر، ولا في الصدقة إذا نشرت"[65]. وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ»[66]، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، وَفِعْلُ الْخَيْرَاتِ يَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ»[67] وقال جعفر بن أبي طالب: حسن الجوار عمارة الدار، وصدقة السر مثراة للمال[68]. وعليه فإن الشريعة الإسلامية السمحاء شرَّعت التنظيم الكامل للمعاملات الاجتماعية والإنسانية، فبدأت بأعلاها كمالًا للنفس ألا وهو رابط الألفة والمحبة، رابطة الإخاء والعزة؛ ليثاب المرء على حسن صنيعه في الدنيا والآخرة.

ومن هذا يتبين للمتلقي أن التشبيه المثبت يعمد إلى بيان الشبه الذى تمَّ ادعاؤه بين الطرفين ثم بيان أوجه الاختلاف الأخرى بالتبعية. والتشبيه المنزوع الصلة هو غياب العلاقة الفعلية بين الطرفين؛ لكونه قائمًا على المواجهة بين شيئين أو شخصين أو وضعين أو حالين. والتشبيه المنهي عنه– الذى هو مناط الدراسة– تشبيه يدعو إلى النهي عن عقد صلة بين المشبه والمشبه به، هذا النهي نهي إلزام وتحذير مقتضاه [لا تتشبهوا بالطرف الثاني]، معللًا النهي عن ذلك؛ إذ إنه ألزم في الكف، وأدعى للترك والاجتناب، والفارق بينه وبين التشبيه منزوع الصلة أن النهي تحذير عن وقوع مشابهة بين الطرفين، أما المنزوع الصلة عدم وجود صلة أصلا وموضوعًا بينهما، قائمة على الاستنكار أن يكون المنكب على وجهه كالذي يمشي سويًّا، أو أن يكون من زُين له سوء عمله كمن هو على بينة من ربه، أو من اجترح السيئات كمن آمن وعمل الصالحات؟!. فالصلة منتفية انتفاءً تامًا، والصلة في المنهي عنه دعوة للامتناع والاجتناب والترك، وربما حدثت فانتهجها قوم من الأقوام.

كما يتبين للمتلقي أن التشبيه المنهي عنه جاء في صورة فريدة تدعو إلى اجتناب المشاركة في وجه الشبه، سواء أكان موجودًا في النص أم غير موجود، ومع علو الطرف الأول في التشبيه المنهي عنه إلا أنه لا يعد تشبيهًا مقلوبًا؛ إذ إنه دعوة لعدم إقامة التشبيه أصلًا وموضوعًا. وجمالية التشبيه المنهي عنه يقتضي الدوام والاستمرار على تجنب المنهي عنه، فلا يتحقق الانتهاء عن المنهى عنه إلا باستيعابه؛ لذا لا يجب التلبس به حتى لا يطلب منكم أيها المؤمنون الكف عنه.

وقد جاء التشبيه المنهي عنه في عشرة مواضع، جاءت تسع آيات بالمخاطب الجمع، وفي آية واحدة الخطاب فيها للرسول صلى الله عليه وسلم منهيًّا فيها عن التشبه بسيدنا يونس في حال ضجره واغتمامه وصيرورته إلى حال الكظم، وإن كان الخطاب موجهًا للرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرًا، فإن مضمونه يتجاوزه ضمنيًّا لأمته صلى الله عليه وسلم حاملًا لهم من الهداية والتوجيه ما يرسم لهم معالم السلوك القويم.

وجاء التشبيه المنهي عنه معتمدًا على أسلوبية النهي [لا+ الفعل المضارع]، والغرض العام التحذير من مغبة اتخاذ الطرف الثاني مشبهًا به؛ لبيان كون المنهي عنه أمرًا محذورًا. وقد جاء التشبيه المنهي عنه في الخطاب القرآني متمثلًا في صورة التشبيه التمثيلي؛ إذ المنهي عنه تشبيه حالة بحالة أخرى؛ متخذًا محورين؛ الأول التشبيه المنهي عنه التمثيلي القائم على التضاد، وقد جاء ممثلًا في آية سورة [آل عمران: 156]، والآخر: التشبيه المنهي عنه التمثيلي القائم على التخالف (الضد غير المباشر)، وجاء في تسع آيات، متجلِّيًا في خمس صور تدلُّ على عمق المقصود، وتزداد بها الدلالة وضوحًا والتأثير رسوخًا. الأولى: التشبيه التخالفي المنهي عنه القائم على التوافق، الثانية: التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على المشاكلة، الثالثة: التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على الكناية، الرابعة: التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على تخالف النسق، الخامسة: التشبيه المنهي عنه التخالفي القائم على النظائر النصية.

(1) ليس من هذا الباب قوله تعالى: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: 71]؛ إذ التشبيه هنا يندرج تحت مصطلح التشبيه (منزوع الصلة)، بقرينة النفي المولد من الاستفهام (أندعو)، فالاستفهام هنا قائم على النفي، وليس قائمًا على النهي.

(2) قرأ رويس عن يعقوب {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ} [16] بالتاء مثل قراءة يحيى بن يعمر وقرأ الباقون {وَلَا يَكُونُوا} بالياء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص: 430)- القراءات وأثرها في علوم العربية (2/ 107) النشر في القراءات العشر (2/ 384). قوله تعالى: {وما نزل من الحق} قطع كاف إن جعلت {ولا يكونوا} نهيًا، وإن جعلته معطوفا على ما قبله كان الكلام متصلا. ينظر: القطع والائتناف (ص: 717)

(3) معاني القرآن للفراء (1/ 243).

(4) الوساطه بين المتنبي وخصومه ونقد شعره (ص: 351).

(5)) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (6/ 333).

(6)) صحيح البخاري (9/ 142) بَابُ كَلاَمِ الرَّبِّ مَعَ جِبْرِيلَ، وَنِدَاءِ اللَّهِ المَلاَئِكَةَ.

(7)) صحيح البخاري (8/ 18) بَابُ مَنْ أَخْبَرَ صَاحِبَهُ بِمَا يُقَالُ فِيهِ.

(8)) إعراب القرآن وبيانه (2/ 14).

(9) مسند أحمد مخرجا (30/ 479).

(10) صحيح البخاري (4/ 65) بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلاَفِ فِي الحَرْبِ، وَعُقُوبَةِ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ.

(11) صحيح مسلم (3/ 1219) بَابُ أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ

(12) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 231)

(13) السابق (ص: 229، 547)

(14) إعراب القرآن وبيانه (4/ 15).

(15) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (14/ 411). باب أَسْبَابُ مَعْرَكَةِ بَدْر

(16) معاني القرآن للفراء (2/ 113).

(17) أخبار الحمقى والمغفلين (ص: 61).

(18) جمهرة الأمثال (1/ 424). الأمثال للهاشمي (1/ 126).

(19) مجمع الأمثال (1/ 255).

(20) المعجم الاشتقاقي المؤصل (4/ 2254).

(21) أسرار البلاغة، ص: (121).

(22) إعراب القرآن وبيانه (5/ 359) .

(23) تأويل مشكل القرآن (ص: 223).

([24]) العقد الفريد (3/ 34).

([25]) مجمع الأمثال (1/ 137).

([26]) جمهرة الأمثال (1/ 271).

([27]) ينظر: البيان والتبيين (1/ 189) ينظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص: 195)

([28]) معاني القرآن للفراء (2/ 113).

([29]) تهذيب اللغة (8/ 315).

([30]) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 230).

([31]) معاني القرآن للفراء (2/ 147).

([32]) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 2022).

([33]) مقاييس اللغة (5/ 184).

(34) المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة (ص: 56).

(35) قرأ رويس عن يعقوب {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ} [16] بالتاء مثل قراءة يحيى بن يعمر وقرأ الباقون {وَلَا يَكُونُوا} بالياء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص: 430)- القراءات وأثرها في علوم العربية (2/ 107) النشر في القراءات العشر (2/ 384). قوله تعالى: {وما نزل من الحق} قطع كاف إن جعلت {ولا يكونوا} نهيًا، وإن جعلته معطوفا على ما قبله كان الكلام متصلا. ينظر: القطع والائتناف (ص: 717)

(36) معاني القرآن للفراء (3/ 135).

(37) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (1/ 89)

(38) مصنف ابن أبي شيبة (7/ 244)، باب: ما قالوا من البكاء في خشية الله.

(39) المفردات في غريب القرآن (ص: 96).

(40) تهذيب اللغة (15/ 398).

(41) السابق (2/ 125). باب/ مَنْ كَانَ يَقُولُ فِي الصَّلَاةِ: لَا تَتَحَرَّكْ

(42) المفردات في غريب القرآن (ص: 283).

(43) مصنف عبد الرزاق الصنعاني (2/ 266). بَابُ: الْعَبَثِ فِي الصَّلَاةِ .

(44) الدعاء للطبراني (ص: 524). باب ما جاء في فضل ذكر الله عزوجل.

(45) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: 143).

(46) تفسير الآلوسي = روح المعاني (14/ 180).

(47) السابق (14/ 180).

(48) المفردات في غريب القرآن (ص: 88).

(49) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 293).

(50) تهذيب اللغة (14/ 155).

(51) المفردات في غريب القرآن (ص: 671).

(52) السبعة في القراءات (ص: 243). معاني القراءات للأزهري (1/ 327).

(53) المفردات في غريب القرآن (ص: 671).

(54) صحيح البخاري (4/ 127) بَابٌ: خَيْرُ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ.

(55) الدلالة الاقترانية في أسماء الله الحسنى، ص: 98.

(56) مقاييس اللغة (5/ 267) المحكم والمحيط الأعظم (10/ 469).

(57) مصنف ابن أبي شيبة (5/ 330) مَا جَاءَ فِي الْمَنَّانِ.

(58) السنن الكبرى للبيهقي (9/ 270) باب: فضل الجهاد في سبيل الله.

(59) مصنف ابن أبي شيبة (5/ 331) باب: مَا ذُكِرَ فِي الشُّحِّ.

(60) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (1/ 97) باب: لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا.

(61) تهذيب اللغة (12/ 175).

(62) تهذيب اللغة (15/ 278).

(63) التذييل ذو الاستقطاب المتماثل Matching Polarity Tags). يحمل وظيفتين؛ الأولى ترديدية، كأن المعنى تمَّ تكريره، والأخرى تفسيرية تعليلية، كما في قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } [آل عمران: 8] ينظر: سيكولوجية تعديل القوة التوجيهية في الخطاب القرآني، ص: 101.

(64) الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين (ص: 115). بَابُ فَضْلِ صَدَقَةِ السِّرِّ ، وَجَمِيعِ أَعْمَالِ السِّرِّ عَلَى عَمَلِ الْعَلَانِيَةِ.

(65) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (2/ 467).

(66) صحيح البخاري (2/ 110) بَابُ صَدَقَةِ السِّرِّ.

(67) مسند الحارث = بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (1/ 397) بَابُ صَدَقَةِ السِّرِّ وَفِعْلِ الْخَيْرِ.

(68) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (2/ 467).

Prohibited Similes in the Holy Quran (Transitioning from the Familiar to the Unfamiliar)

Abstract

This research addresses a rhetorical topic related to the two sides of a simile, the extent of the relationship that governs them, and the simile's deviation from its intended meaning, from two things sharing a description to a prohibition against imitation, both in principle and in substance, whether the prohibition is absolute or restricted. The prohibition of imitation appears in ten verses of the Holy Qur'an, represented by stylistic terms ("Do not be!", "Do not be") or by their implication. This implies that the object of the simile is in a position that the addressee cannot imitate. The research reveals the difference between the prohibited simile and the unrelated simile, in that it prohibits the first party from imitating the other. However, someone might do so, committing a sin and sharing the prohibited ruling with the other group. In contrast, the unrelated simile, the connection between the two parties is nonexistent, quantitatively or qualitatively, fundamentally or by extension, and is completely absent.

Keywords: (Simile, figurative simile, prohibition, contrast, opposition)